

الأدب والمدرسة

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

—

« هل كانت علومك المدرسية ذات أثر فعال في إظهار مواهبك الأدبية ؟ »

سؤال انتقل به صديقنا الأستاذ توفيق الحكيم إلى « برجه العاجي » من مجلة أدبية فرنسية ألقته على طائفة من أدباء بلادها فكان جواب أحدهم: « يخيّل إلي أن النبأ وفقراء الذين وبلادة الشمور وضعف التصور وانعدام الخيال مواد مقررة رسمياً في المناهج المدرسية »

ويقول الصديق فيما عقب على هذا الجواب « ولو سئلت لما خرجت لإجابتي عن هذا المعنى »

وكنا نتحدث في هذا قبل أن أقرأ في البرج العاجي من الرسالة، قصصت على الصديق بعض ما أذكر من عهد المدرسة ووصفت له أساتذتي في اللتين العربية والانجليزية وتوخيت الإنصاف وتحريت الحق، فسألني أن أكتب هذا وأنشره، فوعدت أن أفعل . وقد بدأت أكتب وفي نيتي أن أبر بالوعد، ولكنني بعد أن بلغت هذا الموضع أراني أميل إلى الإخلاف فما أحب أن أسئ إلى أحد بلا موجب وبغير حق، أو أن أرى بالوجود والكفران. وأكبر الظن أن الذين علوني نسوا — أو هم لا يدرون — أني كنت من تلاميذهم؛ فلو قلت فيهم ما قال مالك في الخمر ما عرفوا أنهم هم المنيون؛ ولو أثبتت عليهم لتعجبوا وراحوا يقسمون « ترى من كانوا معلميه ؟ » ولعل أكثرهم قد عاد إلى التراب الذي جيل منه ولكنني مع ذلك لا أراني أقدر أن أضعمهم في الميزان إلا إذا وضعت نفسي معهم

أنا أيضاً كنت تلميذاً ثم مدرساً لسوء الحظ . وكانت ميزتي المحتمة في أيام التلمذة « النبأ وفقراء الذين وضعف التصور » بضاف إليها الفقر . وكان يبلغ من فاقتي في ذلك الزمان أن كنت أحتاج إلى القميص الأبيض لألبسه مع البذلة فلا نجد ثمنه، فتعتمد أمي السكينة إلى ما خلف أبي من قصان فتصلحها فتضيق من هنا وتقصر من هناك، ولكن الياقة أو البنيقة

كانت تعيها فتلبسها كما هي؛ ولو جعلت لي منها حزاماً لكان هذا أصلح. فتصور هذا الطوق العظيم على عنقي. وكنت إذ أمشي بها لا أدري ماذا أصنع وكيف أبلغ المدرسة، لأنني كنت أحتاج إلى كلتا يدي لأهوى بجانب الطوق عن أذني، ولكنني محتاج أيضاً إلى حمل الكتب والكراسات فكيف أصنع وليس لي غير يدين اثنتين .. ولا أدري كيف نجوت من العمي فقد كانت عيناى ترمدان فلا تبعاً بي المدرسة . نعم كان لها طبيب يحضر كل يوم لعيادة المرضى منا فكنا إذا سمعنا ناقوسه نجري إليه فيصنفا أمامه ولا يحشم نفسه عناء السؤال أو الفحص، بل يقول وهو يشير إلى كل واحد منا على الترتيب: « شرية، لبخة، قطرة » فيتفق أن يكون من حظك « القطرة » وشكواك أن رجلك مهيضة، أو اللبخة وبك زكام . وكنت أذهب إليه لعلاج عيني ولكنني كنت أخرج مأموراً بالشرية أو اللبخة ولا أخرج قط بالقطرة . أما في البيت فكان كل ما أندأوى به من الرمد الماء البارد .

وآية غبائي وبلادتي أني كنت في كل فرقة الأخير، — حتى مقعدى كان الأخير في الحجرة — وكنت لصغر جسمي وقماء لا أكاد أبداً للمدرس، فهو لا يراني ولا يحس بوجودي ولا يعنى بي، وأنا أغتم هذه الفرصة فأشغل عن درسه بما يخطر لي من البعث . وكان جاري في بعض الفرق ضخم الجسم كأنه الفيل الصغير، وكان لجسامته يحتاج حين يقعد أن يتكى على الدرج بكلمات يديه، وكانت عادة أن يمسح وجهه بكفيه بعد ذلك ويتم بقله: « خيبة الله عليكم » — يعني زملاءه التلاميذ لأنهم كانوا لا يكفون عن ركوبه بالبعث، فاشترت مرة قليلاً مما يسمى « بودرة الغفريت » وترتها على الدرج فاتكأ عليه ومسح وجهه ثم ذهب يحك كفيه وخديه حتى دعى وجهه وانقطع عن المدرسة أياماً حتى شق . ففطن المدرسون إلى وجودي بعد ذلك وصرت أهمهم بكل ما يحدث في المدرسة ولو وقع في فرقة غير فرقتي، فأنا عندهم المحرض أو الموسوس بالبعث إذا لم أكن أنا الفاعل أما الدروس فما كنت أفهم منها شيئاً؛ ولم يكن هذا ذنب المعلمين فما كانوا يقصرون في الشرح والبيان، ولكني أنا كنت لا أستطيع أن أتنفع بذلك لأنني أكون قاعداً على ركبتي — فوق البلاط — عقاباً لي على ما لم أصنع في الغالب — أو واقعاً ووجهي

أن نحفظ : « إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه ، فكل رداء يرتديه جميل » . وقد يكون هذا اتفاقاً محضاً

وكان أساتذتنا في اللغة الإنجليزية على عكس ذلك ، فكانوا يرشدوننا ويساعدوننا ويقرضوننا الكتب إذا أنسوا منا ميلاً إلى القراءة ، ويصحبوننا إلى مكتبة المدرسة ، ويتخيرون لنا ما يوافقنا وما يسعنا أن نفهمه ، ولا يدخلون علينا بالتفهم والشرح حتى في أوقات الفراغ إذا طلبنا منهم ذلك ؛ ولكن بعضهم كان عجيب الشذوذ . أذكر منهم واحداً كان يملأنا الجغرافيا الاقتصادية فكان يكتب على السبورة رقماً يبلغ من طوله أن بقيته تبقى على الجدار أو كان هذا مبلغ علمه بهذه الجغرافيا . ومنهم من كان يعطينا الدرجات على الخط وجودته ولا يبالي أصبنا أم أخطأنا في الموضوع ، فأجودنا خطأ إعلاناً درجة ولو كان أجهل مني

أظن أن المدرسة لا تستطيع أن تعلم الأدب ، وكل ما يسعها ويجوز أن يطلب منها هو الترغيب والتوجيه والتسديد ، وحسبها أن توفق في هذا ، وأكاد أقول حسبها ألا تنفر من الأدب وتره فيه

ابراهيم عبد القادر المازني

إلى الحائط أو مطروداً من الحجرة كلها . وكيف يمكن بالله أن يفهم شيئاً من لا يزال هكذا — ركبناه على الأرض أو أنفه على الجدار أو هو يتمشى في الفناء أو الدهليز ...

وكان أرق المدرسين مني وأظرفهم وأطفهم على العموم إنجليزي أنيق كان إذا رأى — وما أكثر ما كان بغضى — أخرج على النظام يدعوني أن أقف ويطلب مني أن أتهدى كلمة « مجنون » أو « شق » وغير ذلك مما يجري هذا المجرى . ويكتفى من العقاب بهذا

وكان لنا معلم للغة العربية غريب الأمر — كانت حجرتنا مجاورة لحجرة الناظر الإنجليزي ، فكان هذا المعلم يفرغ من إلقاء الدرس وشرحه ومن التطبيق أيضاً في خمس دقائق على الأكثر ثم يقول : « اغلقوا النوافذ كلها » فنفعل ثم يأخذ في حديث سياهي يذم فيه عهد إسماعيل ويلعن فيه أيام توفيق ويثني على الإنجليز أطيب الثناء . ولم يكن أعجب من صنيعه هذا إلا إغلاقه النوافذ ليوهنا أن الناظر الإنجليزي يسوؤه أن يعلم أنه يثني على قومه ... وكنا نناقشه ونجادله ونخالفه فيوسع صدره ويروح بمحاورنا ويداورنا ليقنعنا بأن ما خرب من نفسه عامر . وكانت تلك أيام مصطفى كامل وكنا نقرأ « لواءه » ونسمع خطبه . وأحسب أني لا أبالغ إذا قلت أني تلقيت دروسي الأولى في اللغة العربية من اللواء والمؤيد لا من معلم في المدارس ، وتصور أن منهم معلماً كان يكلفنا أن نحفظ كتاب النحو عن ظهر قلب ... بل تصور أنه كان يثني على التلميذ الذي يقول له في جواب سؤاله عن الفعل اللازم « ماهو » — « هو ما ليس كذلك » — كما في الكتاب بالحرف الواحد . ولم أستطع قط في حياتي أن أحفظ شيئاً عن ظهر قلب إلا إذا جاء هذا عفواً وعن غير قصد ، فكانت درجتي في اللغة العربية هي الصفر دائماً

وكل ما حفظته من الشعر العربي في المدرسة قصائد قليلة مثل : إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميل وما إليها — وحتى هذه يخيّل إلى أني ما حفظتها إلا فيما بعد — لما كبرت ، ولكنني أذكر على كل حال أن المدرس الذي كان يثني النوافذ ويهجو المصريين وعدج الإنجليز هو الذي كان يتقاضانا

الفصول والغايات

معجزة الشاعر الطاب

أبي العلاء المعري

طرفة من روائع الأدب العربي في طريقته ، وفي أسلوبه ، وفي معانيه . وهو الذي قال فيه ناقدو أبي العلاء إنه عارض به القرآن . ظل طول هذه القرون مفقوداً حتى طبع لأول مرة في القاهرة وصدر منذ قليل

صححه وطبعه وشرحه الأستاذ

محمد حس زباني

تمت ثلاثون قرناً غير أجرة البريد وهو مضبوط بالشكل الكامل ويقع في قرابة ٥٠٠ صفحة ويطلب بالجملة من إدارة مجلة الرسالة ويباع في جميع المكتبات المميرة